(٢٠)
دروس الوطنية التى أخذها مصطفى كامل من النديم

اختلف النديم عن زعماء الثورة العرابية فى أنه ثابر على الكفاح بعد الهزيمة، حيث تحمل بعد عودته من منفاه عام ١٨٩٢ مهمة إيقاظ الشعور الوطنى واستنهاض الهمم وبث روح المقاومة بين فئات الشعب ضد الاحتلال. ولما كان الجيل الذى عاصر الثورة العرابية قد أثرت فيه روح الهزيمة، وأضعف الاحتلال من معنوياته، فقد وضع النديم أمله فى الجيل الجديد من الشباب وخصوصا طلبة الحقوق، فجذب إليه منهم من وجد فيه مثلا لجهارة الرأى وفصاحة القول، ومنهم مصطفى كامل الذى ما إن سمع بظهوره حتى خف للقائه وقدم نفسه إليه وكان حينئذاك طالبا فتتلمذ عليه ونشأ فى مدرسته واقتبس بعض أساليبه واطلع

على دخائل الحوادث الماضية" . فعرف منه أسباب حوادث الثورة العرابية على حقيقتها ومواقع الخطأ التى تورط فيها العرابيون ، كما استطاع بفضل صحبة أستاذه الثائر التعرف على حقيقة التيار السياسى فى البلاد وكيف شوه رجال الاحتلال مبادئ العرابيين وخططهم ، كما تعلم منه القواعد التى إذا اتبعها يكون وطنيا ناجحا وهى :

١ - ألا يستعمل الجيش مطلقا فى حركته بل يجعل جل اعتماده على الرأى العام الذى يمكن تنميته بالتربية الوطنية والأخلاقية للشعب حتى يتكون منه قوة تكون ركيزة للحركة الوطنية .

٢ - ألا يعادى الخديو حتى لا تنقسم الأمة كما حدث بين العرابيين والخديو توفيق ويضطر الخديو لكى ينقذ عرشه إلى الانضمام إلى القوى الأجنبية ضد الوطنيين فتفسد حركة الدعوة إلى الاستقلال ويستفيد الإنجليز من ذلك ويحققوا أغراضهم الاستعمارية باستمرار احتلالهم للبلاد .

٣ - ألا ييأس مطلقا من طريق الكفاح الشاق والطويل مهما طالت المقاومة لأن اليأس طريق الهزيمة الأكيد .

٤ - ألا يطمئن إلى الإنجليز بل يحذر من خداعهم ودسائسهم التى كان لها دخل كبير فى إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال .

ونحن نلاحظ من تتبع خط مصطفى كامل الوطنى أنه سار على هدى تعليمات أستاذه، فبالنسبة إلى البند الاول الذى تعلمه منه وهو عدم الاعتماد على الجيش بل اللجوء إلى قوة الرأى العام نرى أن مصطفى كامل رفض أن يكون للجيش أى دخل فى حركته السياسية بل كان يدعو إلى الكفاح السلمى.

لقد حاول مصطفى كامل تكوين رأى عام بين أبناء وطنه يكون ركيزة له فى مقاومة الاحتلال بدلا من الاعتماد على الجيش، وكان سبيله إلى ذلك:

١- إنشاء المدارس الأهلية لتربية النشء التربية الوطنية الصحيحة لأن الجهل هو العدو الأول للتقدم واستقلال البلاد، وأنه لا سبيل لأمة من الأمم أن تنال المجد والعز والرفاهية بغير تربية أبنائها وتهذيب نفوسهم وإرشادهم إلى واجباتهم نحو الأمة والوطن والدين.

٢- النضال بالقلم تارة واللسان تارة أخرى حتى تستعيد الجماهير ثقتها فى نفسها.

٣- ضرورة الاتحاد بين القوى كافة فى مصر للمناداة بالجلاء والاستقلال.

وبالنسبة إلى البند الثانى وهو التعاون مع الخديو فقد سار مصطفى كامل على نصائح أستاذه النديم بالبعد عن الشقاق،

وكان من أولى ثمرات ارتباط مصطفى كامل بالخديو أن استنبط فكرة الاحتفال بعيد جلوس الخديو "وحرض رفاقه التلاميذ على ذلك فاحتلفوا به فى الأزبكية فى ٨ يناير ١٨٩٣ .

كما وقف مصطفى كامل بجانب الخديو فى أثناء الأزمة الوزارية ودافع عن حقه فى تعيين وزرائه وتمسكه بحقوقه الشرعية فقال : " لقد ادعت إنجلترا قبل الاحتلال الإنجليزى وبعده أن جل أمانيها تقوية السلطة الخديوة ودك أركانها . . وقد ظهرت أعمال الإنجليز فى مصر ونياتهم ظهور الشمس فى رابعة النهار فى عهد سمو الخديو الحالى (عباس حلمى باشا الثانى) حيث جاء مطالبا بحقوقه الشرعية متمسكا بحقوق أمته فعارضته إنجلترا ثم نادى أبناء الوطن كافة بالوقوف بجانب الخديو ضد الأطماع الأجنبية فقال إن "مصالح الأمة المصرية صارت اليوم متفقة مع مصالح الخديو ، وصارت آمال الأمة وأمانيها متفقة مع آمال سمو الخديو وأمانيه فيستحيل على أبناء مصر أن يبتعدوا عن سمو العزيز (عباس حلمى باشا) لحظة واحدة» .

هكذا وقف مصطفى كامل بجانب الخديو وشجعه على ذلك مواقف الخديو تجاه الحركة الوطنية فى ذلك الوقت .

وبالنسبة إلى البند الثالث وهو عدم اليأس والاستمرار فى طريق الكفاح وضرورة إعادة الثقة إلى الشعب الذى أثرت

الهزيمة فى نفسه وتسرب على أثرها اليأس فى نفوس الكثيرين، فقد دعا مصطفى كامل إلى محاربة اليأس وإلى الثقة فى الأمة وسار على هدى حكمة أستاذه: "إذا ألقيت السلاح تعبا فأنت المقتول".

لقد دعا مصطفى كامل إلى عدم اليأس وإلى ضرورة اعتماد الأمة على جهود أبنائها والثقة فى أنفسهم وكانت صرخته "لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة"، خير مثال على دعوته، وكانت حملته ضد الاحتلال تستخدم عدة وسائل منها أن لا يأس مطلقا".

لقد رسم مصطفى كامل لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال وهى مقاومة لا ضعف فيها ولا هوادة ولا تراجع، وظل ثابتا فى جهاده.

وأما عن البند الرابع وهو الحذر من ألاعيب الإنجليز وخداعهم فلعل أدق وصف لذلك ما ذكره الأستاذ محمد شفيق غربال بقوله: "كانت حملة مصطفى كامل تستخدم ثلاث وسائل: ١- لا تصدقوا أيها المصريون كلام الإنجليز أو كلام مأجوريهم بأن مركزهم فى مصر لا يتزعزع ولن يتزعزع.

٢- لا تثقوا مطلقا بوعودهم ولا تركنوا إلى محاولاتهم تبسيط مركز البلاد الدولى، بل تذرعوا بتلك العناصر الدولية

والعثمانية التى يكرهها الإنجليز، ويكفى كرههم لها تمسككم بها.

٣- لا تصدقوا أن الاحتلال يمكن أن يبطن خيرا لكم أو لبعضكم فهو يفعل ذلك ليفرق كلمتكم ويجعل من بعضكم أعداء للبعض الآخر.

لقد تعلم مصطفى كامل من أستاذه دهاء السياسة الإنجليزية ومهارتها وأن الإنجليز لا يهمهم غير مصالحهم، وقد عبر عن ذلك بقوله: "الإنجليز يعملون لخدمة إنجلترا بالذات، فهم يريدون أن تكون سياسة بلادهم سياسة لين ومهارة بدلا من أن تكون سياسة شدة وصلابة".

هكذا كانت أخطاء الثورة العرابية التى وعاها مصطفى كامل من النديم درسا له جنبه مواضع الإخفاق فى جهاده لأن الزعامة الحقة هى التى تستفيد من تجارب الماضى وتعتبر بمصائب الوطن فتقيه مواطن الزلل وتسلك بالأمة سبيل الحكمة والرشاد. وهكذا كان النديم أستاذا مباشرا لمصطفى كامل فى ميدان السياسة المصرية حيث كانت نصائحه وتوجيهاته خير هاد له حتى أصبح يقدر لكل خطوة موضعها وليس من شك فى أن النديم غرس فى مصطفى كامل آراءه وكان همزة الوصل بين جيل الثورة العرابية والجيل الجديد الذى تسلم الراية بعد إخفاقها.

أثر النديم فى تكوين مصطفى كامل الصحافى :

لقد شرح النديم لمصطفى كامل وزملائه أهمية الصحافة ودورها فى تنوير الرأى العام وشجعهم على الكتابة فيها ، ولما أنشأ مصطفى كامل مجلة "المدرسة" رحب بها ونوه عنها فى مجلة «الأستاذ» .

لقد كانت جريدة "الأستاذ" التى يحررها النديم فى ذلك الوقت هى الأستاذ لمصطفى كامل حيث تعلم منها الاتجاه والنغمة وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف ، وفيما يلى يتضح ذلك :

كتب مصطفى كامل فى العدد الأول من مجلة المدرسة أنه أنشأ هذه الجريدة "لتكون مركزا لجمع درر فرائد الأستاذ ، وقوله هذا يدل على مدى اعتماده على مجلة النديم " الأستاذ" من حيث الاتجاه والتقليد ويثبت ذلك كتاباته فى أعداد مجلته .

أثر النديم فى تكوين مصطفى كامل الخطابى :

لقد أوصى النديم الناشئة من الشبان بأن يتقنوا فن الخطابة وتولى بنفسه تلقينهم وتدريبهم عليها حتى صار بعضهم من قادة الفكر والإصلاح أمثال مصطفى كامل وأحمد فتحى زغلول ، وقد اختص مصطفى كامل بالعناية حيث وجد فيه الاستعداد وتبينت له قدرته الخطابية وطالعته من مواهبه أمارات الزعامة

فشحن عواطفه بما فى نفسه من أفكار مكبوته سنين طوالا ، وقد ظهر أثر ذلك واضحا فى خطب مصطفى كامل وأسلوبه حيث اقتبس من النديم بعض أساليبه فى الخطابة وكان ممن يرددون نغماته ، ومن يدقق فى الخطب التى ألقاها مصطفى كامل على أبناء وطنه يجدها تخضع لشبه منهج معين قوامه من البداية إثارة المشاعر الوطنية وهو نفس الأسلوب نفسه الذى كان يتبعه النديم حيث كان أسلوب كل منهما مؤثرا بالنسبة إلى السامع على المستويات كافة ، وكما كان النديم مثالا لمن جاء بعده من الخطباء والمشاهير فى تاريخ مصر الحديث ، حيث كان ذا لسان فصيح وبيان واضح وصوت جهورى وعبارات فصيحة وحجج قوية وجرأة فائقة فى مواجهة الجموع ، كان كذلك مصطفى كامل حتى إن "على مبارك" لقبه بامرئ القيس لإعجابه بفصاحته وشجاعته وقوة عارضته .

وكما ظهرت خطورة خطب النديم خلال أحداث الثورة العرابية وخلال المعارك الحربية بين المصريين والقوات الإنجليزية فقد برزت أيضا خطب مصطفى كامل فى حركة الإحياء وبعث الوطنية فكان له الفضل فى استعادة الثقة إلى النفوس التى أقفرت وزرع الأمل فى القلوب التى كانت قد استسلمت لليأس .

وهكذا كان النديم صاحب أول مدرسة خطابية فى التاريخ

المصرى الحديث وكان فى مقدمة من تخرج فيها مصطفى كامل الذى تأثر بأستاذه لا فى المبادئ فحسب بل فى الأسلوب أيضا ثم حمل الرسالة كاملة دون يأس أو كلل .

أثر النديم فى أنشطة مصطفى كامل الوطنية الأخرى :

لم يقتصر أثر النديم فى نشأة مصطفى كامل على الصحافة والخطابة فحسب بل كان مصطفى كامل متأثرا ومقلدا لأستاذه فى كثير من الأنشطة الأخرى ، فكما بدأ النديم نشاطه السياسى بالعمل السرى فى جمعية " مصر الفتاة" السرية بدأ مصطفى كامل نشاطه السياسى بالانضمام إلى جمعية "إحياء الوطن" السرية التى كانت تتكون من مصريين وفرنسيين ويتركز نشاطهم حول فكرة الاستعانة بدولة قوية تناوئ الاحتلال ، وكما اهتم النديم بإنشاء الجمعيات الخيرية والأدبية والعلمية اهتم ايضا مصطفى كامل بذلك ، حيث أسس فى مقتبل شبابه جمعية أدبية وطنية سماها "جمعية الصليبة الأدبية" ، كما عمل فى جمعيات "الاعتدال" و"الهدى" و"العلم المصرى" ، وهذه الجمعيات هى التى أسسها جماعة من صفوة فضلاء المصريين أدبا وعلما وجاها ومكانة ، وكما كان للنديم فى هذه الجمعيات جولات فى الخطابة والمناظرة كان لمصطفى كامل أيضا جولات صادقات عند المناظرة والجدل والمناقشات .

وكما اهتم النديم بالمسرح وألف مسرحيتى "الوطن وطالع

التوفيق" و"النعمان" وكتب عن أهمية التمثيل اهتم أيضا مصطفى كامل بالمسرح حتى أن النديم نوه بمجهوده فى تكوين جمعية من الشبيبة المصرية المثقفة لترقية المسرح المصرى وهى "جمعية الفتوح الخيرية" ، كما نوه بالإنتاج الفنى لهذه الجمعية بتشخيص رواية "الملكة بلقيس" وإلى جانب ذلك فقد ألف مصطفى كامل رواية بعنوان " فتح الأندلس وكتب عن أهمية التمثيل بقوله : " التمثيل فى كل أمة هو من أهم دواعى ارتقائها ومن أكبر أسباب تهذيبها" .

وكما اهتم النديم بالتعليم الأهلى وأسس مدرسة لتعليم الأطفال بالجمعية الخيرية الإسلامية اهتم أيضا مصطفى كامل بذلك فنادى بنشر التعليم الأهلى فى البلاد وكان من أكبر أمانيه أن يكون له مدرسة ويتضح ذلك من قوله : " إن من أكبر أمانى أن يكون لى مدرسة أعلم فيها الناشئين ، وقد تحقق له ما أراد حين ساعده بعض أثرياء الوطنيين على ذلك وتأسست مدرسة بباب الشعرية أطلق عليها اسم " مدرسة مصطفى كامل" كان له أمر إدراتها والإشراف عليها .

وكما نادى النديم بالحياة الديمقراطية والدستور نادى بذلك أيضا مصطفى كامل حيث بدأ يروج للأفكار الدستورية فى مجلة المدرسة ويشرح أنظمة الحكم ، وتطرق حديثه إلى الحكومة الدستورية وكيف أن الحكم فيها موزع بين ثلاث سلطات لا تطغى إحداها على

الأخرى، ثم نجده يطالب فى مقال له باللواء بتنفيذ وعد اللورد دفرين بتأسيس مجلس نيابى كما أخذ يدعو إلى إقامة مجلس نيابى ليكون أداة لإصلاح عيوب الحكم فكتب مقالا آخر باللواء بين فيه فساد الإدارة الحكومية وطالب بمجلس نيابى بقوله: "وعندى أن هذه الأدوار المختلفة والأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة هذه البلاد إلى مجلس نيابى تكون له السلطة التشريعية الكبرى، فلا يسن قانون بغير إرادته ولا تحور مادة إلا بمشيئته ولا يزعزعه نظام بغير أمره، ولا تعلو كلمة على كلمته».

لقد كان طلب مصطفى كامل بالجلاء مقترنا بطلب الدستور، حتى أن طلبة المدارس كانوا يقومون من وقت إلى آخر بمظاهرات ينادون فيها الخديو بقولهم: "الدستور يا أفندينا".

وكما دعا النديم إلى أهمية الوحدة الوطنية بين عناصر الأمة فقد نادى بذلك أيضا مصطفى كامل فقال فى إحدى خطبه: " مضى على مصر ثلاثة عشر قرنا نحن والأقباط فيها إخوة لا نتكلم بشأن الدين إلا إذا كنا فى المسجد أو كانوا فى الكنيسة". كما ذكر أن الديانة الإسلامية تعلم معتنقيها احترام كل المذاهب وجميع الديانات وأن الاعتدال والتسامح من قواعدها الأساسية، ونادى بالوحدة الوطنية بقوله: " أما واجبنا الوطنى فهو العمل باتحاد تام بين المسلمين والأقباط وغيرهم ممن صارت

مصر وطنا لهم، وقد برهن على ذلك بأن ضم بعض الأقباط إلى الحزب الوطنى بل وكان أحدهم - وهو ويصا واصف - أحد أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطنى كما كان مرقص حنا من خيرة أصدقائه، وكما انتقد النديم مواقف السوريين تجاه القضية المصرية انتقدهم أيضا مصطفى كامل لاعتقاده أنهم يخالفون مصلحة مصر، وكما أن النديم لم يتعرض للتهمة التى تعرض لها الكثير من الزعماء المصريين وهى تهمة ممالأة الاحتلال فقد نجا مصطفى كامل أيضا من هذه التهمة ولم يستطع أحد من أعدائه أن يرميه بها.

وكما هاجم أذناب الاحتلال والصحف الموالية له النديم وجهاده الوطنى هاجموا مصطفى كامل، فعندما قابل مصطفى كامل الميرالى بارنج شقيق كرومر وتناقش معه فى المسألة المصرية هاجم أصحاب المقطم ذلك وانتقدوا مصطفى كامل انتقادا شديدا واعتبروا حديثه خرافة.

إن أفضل ما فى الرجال هو الثبات على المبدأ مهما كانت الصعاب. وقد ثبت النديم على مبدئه وكان وفيا للثورة العرابية حتى فى أحرج اللحظات وخصوصا بعد هزيمتها وكذلك كان مصطفى كامل ثابتا على المبدأ رغم تطورات الأحداث فى غير صالح الحركة الوطنية وخصوصا بين حادثتى فاشودة والاتفاق الودى.